عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الثانية: مدخل لعلم التصوف (2)
الدرس الرابع: التصوف علم مدون
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

التصوف علم مدون

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

علم التصوف: التصوف مجموعةٌ من القواعد السلوكية، والمعارف الذوقية، والسلوكات الأخلاقية التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته؛ والصوفية الكرام اعتمدوا هذه المعارف، وانتهجوا تلك القواعد التزكوية والسلوكية في تربية الناس وتسليكهم... في ذلك قال ابن القيم في مدارج السالكين (259/2): «التصوف: زاوية من زوايا السلوك الحقيقي وتزكية النفس وتهذيبها، لتستعد لسيرها إلى صحبة الرفيق الأعلى».

السلوك الصوفي إذن هو تجربة تزكوية وتعبدية عميقة قامت على مقتضيات الأصول الإسلامية، وتثمر هذه التجربة، المبنية على المجاهدة والمحاسبة، مواجد وأذواق قلبية، وسلوكات أخلاقية؛ حتى قال عنهم الشاطبي: «وبذلك سادوا غيرهم ممن لم يبلغ مبالغهم في الاتصاف بأوصاف الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه» (الموافقات، ص240). وقد يعتقد البعض بأن هذه المجاهدات والأساليب التربوية المعتمدة لدى الصوفية هي دخيلة على الشريعة الإسلامية!؛ في ذلك يستدرك الشاطبي (الموافقات) فيقول: قد «يظن الظان أنهم شدُّوا على أنفسهم، وتكلّفوا ما لم يُكلَّفوا، ودخلوا على غير مدخل أهل الشريعة، وحاش لله! ما كانوا ليفعلوا ذلك وقد بنوا نحلتهم على اتباع السنة وهم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة». ووصفهم «بأنهم واقفون عند حدود الشرع في حركاتهم وسكناتهم» (الموافقات 207/2).

تدوين التصوف: هذا العلم العملي (في الميراث الإسلامي) المبني على المجاهدة والمحاسبة، وعلى قواعد وضوابط سلوكية وأخلاقية، هو الذي اختص فيه أهل الورع والتقوى من المقبلين على الله بالقلب والقالب، حيث تكلموا فيه وألّفوا، ووضعوا له ضوابط وقواعد سلوكية... تماما كما وقع مع كل العلوم الإسلامية التي كُتبت وأُلّفت: حيث ألّف الفقهاء في الفقه وقواعده، وأهل العقيدة في علم الكلام وضوابطه، وهكذا...

الصوفية إذن تكلموا وألّفوا في تخصصهم، تكلموا في الأذواق والسلوكات التي تحصل للمريد عن طريق هذه المجاهدات، تكلموا في المعارف التي تستقر للمريد مقاما، ثم يترقى منها إلى غيرها،... وتكلموا وألّفوا في مبادئ هذا العلم، وفي ضوابطه وقواعده، فصار علم التصوف في الملة علما مدونا، كباقي العلوم الإسلامية الأخرى...

التآليف الأولى في التصوف: كان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

- **الحارث المحاسبي**، المتوفى سنة 243 هـ، ومن كتبه: الرعاية لحقوق الله، وآداب النفوس، بدء من أناب إلى الله، ورسالة التوهم.
- **أبو سعيد الخراز**، المتوفى سنة 277 هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله، وكتاب الصدق.
- **السراج الطوسي**، المتوفي سنة 378 هـ، وله كتاب: اللمع في التصوف.
- **أبو بكر الكلاباذي**، المتوفي سنة 380 هـ، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف.
- **أبو طالب المكي**، المتوفى سنة 386 هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.
- **أبو قاسم القشيري**، المتوفى سنة 465 هـ، **ورسالته القشيرية** هي من أهم الكتب في التصوف.
- **أبو حامد الغزالي**، المتوفى سنة 505 هـ، ومن أهم كتبه في التصوف: **إحياء علوم الدين**، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، المنقذ من الظلال، وغيرها كثير...
- **عبد القادر الجيلاني**، المتوفى سنة 561 هـ، وهو الذي قال ابن تيمية في حقه كلاما مليحاً، بل رفع من شأنه في الفتاوى ومجّده، واعتبره من أعظم مشايخ زمانه، وكُلّما ذكره قال عنه (قدس الله روحه)؛ ولمولاي عبد القادر الجيلاني العديد من المؤلفات في التصوف تُناهز الأربعين، ومنها:

الغُنية لطالبي طريق الحق، الفتح الرباني والفيض الرحماني، سر الأسرار في التصوف، الطريق إلى الله، آداب السلوك والتوصل إلى منازل السلوك، تحفة المتقين وسبيل العارفين، إلى غير ذلك...

- **ثم توالت بعد ذلك المؤلفات وصولا** إلى تأليف الشيخ أبي عبد الله الساحلي الأندلسي (ت 753 هـ)، وكتابه: بغية السالك في أشرف المسالك
- **ثم مؤلفات الشيخ أحمد زروق الفاسي** (846-899هـ)، وكتبه: عدة المريد الصادق، قواعد التصوف، شرح حكم ابن عطاء الله السكندري، شرح دلائل الخيرات... إلى آخره

تآليف المصطلح الصوفي: لم يغفل الصوفية كذلك التأليف في المصطلح الصوفي، والذي هو بمثابة مفتاح المعرفة في فنهم وعلمهم، وذلك حتى لا يُفهم بغير ما قصدوا إليه...

- وقد شكل كتاب اللمع في التصوف، لسراج الدين الطوسي منذ القرن الرابع الهجري، المرحلة الجنينية للاهتمام بمصطلحات التصوف جمعا وتعريفا؛
- وتوالت بعد ذلك المؤلفات في الموضوع: ومنها رسالة الإمام القشيري (ت465هـ)، وكشف المحجوب للإمام الهجويري (ت465هـ)، ثم اصطلاحات الصوفية لابن عربي (ت638هـ) واصطلاحات الصوفية القاشاني (ت.730هـ)، وهكذا...

من تآليف علم التصوف ومبادئه: من بين الذين ألّفوا في علم التصوف ومبادئه: العلامة عبد الواحد بن عاشر الأندلسي الفاسي (990-1040هـ)، وهو من علماء وفقهاء القرويين، ويُعَدُّ من أبرز علماء المذهب المالكي، وله تآليف عديدة نافعة، في غاية التحرير والإتقان، بلغت أربعة عشر كتاباً، في التفسير والقراءات والأصول والحديث وعلم الكلام وغيرها.. وأهم هذه التآليف وأشهرها نَظْمُه في الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية ومبادئ التصوف، والذي سماه: «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين»، واعتنى به العلماء حفظا وشرحا وتعليقا وختما، وسمّى باب التصوف، بـ(كتاب مبادئ التصوف وهوادي التعرف)، وهو الذي سنتناوله بالدرس والشرح في الحلقات القادمة بحول الله.